بعض عناصر حول
خصائص اللغة الإعلامية والأدبية

عروسية النالوتي

ان لغة الخطاب البشري بكل أصنافه ومختلف وظائفه هي من العناصر الاساسية، لا لأنها تمكن المجموعات البشرية من الإفصاح عن مقاصدها والتحاور فيما بينها بل وخاصة لأنها أداة فعّالة مكّنت الإنسان وما زالت تمكنه من السيطرة على المحيط الذي يتحرك فيه ويتفاعل معه وتضمن توريث المخزون المعرفي المستقى من الوسط الطبيعي المروّض كرصيد ضروري للأجيال المتعاقبة، وذلك داخل نظام لغوي بات يستقرّ ويطمئن مع الأيام.

إن ممارستنا للغة كفعل يومي قد تجعلنا لا ننتبه لخطورة هذه الممارسة ولا للوظائف التي يمكن أن تباشرها عبرنا.

ذلك أننا نتوهم دائما أنه بمجرد «حذقنا» للغة نستطيع السيطرة على محيطنا، وفي هذا على ما يبدو خطأ كبير لأننا في الحقيقة لا نستطيع السيطرة لغويا الا على ما أنجز في الواقع فعلا، فحتى لغة التطورات والرؤى الخيالية ليست الا تسمية لخيال محدود متعلق بواقع وقعت السيطرة عليه بصورة جزئيـــة لا تخلو دائما من الالتبـــاس والغلـــط والانحراف، فلقد ثبت أنّ اللغة كما جاء في كتابات جورج مونان «تفرض علينا نوعاً ما من تقسيم العالم...» وأن اللغة يمكن أن تدوّن تجربة ناقصة أو خاطئة وتحتفظ بها. فعبارة «يطلع النهار» مثلا كما يقول مونان لم تسجن «غاليلو في نظام بطليموس الفلكي». فالتجربة البشرية يمكن أن تتجاوز التعابير اللغوية التي جاءت في فترة ما لتجسّم واقعا ما وقع تجاوزه أو تصحيحه... فاللغة اذن ليست تلك الأداة البريئة التي يمكننا أن نتحكم فيها بالقدر الذي نريد مهما بلغت سيطرتنا عليها فهي تتحدّانا تارة بقصورها عن القبض على الواقع المتجاوز لنفسه باستمرار فتتكـاثر الفراغـات ويحـدث الشغور وطوراً بتجميـدهـا للحظات معيّنة من لحظات التجربة البشرية التي وقع استهلاكها والاستعاضة عنها ببديل مغاير لها.

ان هذا الوضع اللغوي ينطبق تماما على واقع اللغة العربية في بلادنا سواء كانت اللغة التي نتحاور بها يوميا مشافهة أو اللغة التي نكتبها في مجالي الصحافة أو الادب.

لغة الاعلام

ان اللغة الإعلامية تهتم على وجه التحديد بالوظيفة الابلاغية التي تجري وراء الحدث وتنتهي به، ونتيجة لهذا الجري فإنها حتماً ستصطدم بالفراغات المعجمية والهيكلية التي توجد داخلها فتلتجىء الى ملئها بما توفر لها من الاستعارات المعجمية من لغات أخرى، نظراً لأن الإعلام هو محاولة تبليغ الحدث الى القارىء أو السامع في أقصر وقت ممكن، ونقل الحدث يتم مرورا بالترجمة عن أهم الوكالات العالمية للاخبار، التي تصوغ أخبارها في لغاتها الاصلية، فيحتاج الصحفي في إعلامنا العربي الى إبعاد المرادفات التي قد تكون موجودة فيضع مكانها الكلمة الأجنبية داخل نظام الجملة العربية المختلف. فقد يحدث أن نخضع الكلمات المستعارة من اللغات الاجنبية الى الموازين العربية أو نبقي عليها كما هي دخيلة على نظام لا يستسيغها ولا نستسيغه.... وما وجود الاستعارة اللغوية بالنسبة للغة ما الا دليل على هذه اللغة الى دوالّ جديدة للتعبير عن مدلولات جديدة وقع استيرادها تماما كما تستورد الدول البضائع التي تفتقر اليها من الخارج.

فاللغة في الحقيقة تعكس واقع المجموعة أو البلد الذي تنطق عنه بما فيه. فاذا كان العالم العربي مثلا لا يسيطر تكنولوجيا على محيط فكيف للغة اذن أن تسيطر عليه؟

غير أن التأثر باللغات الأجنبية العالمية التي تسوّق أخبارها لا يشمل معجم اللغة التي تنقل اليها الاخبار (اللغة العربية مثلا) بل يتجاوزه الى نظام الجملة التي هي من أخص خصائص كل لغة، لذلك نجد في لغة الإعلام الكثير

من العبارات المنقولة نقلا عن اللغة الاجنبية والملفوظة بأصوات عربية والتي وبحكم كثافة استعمالها وانتشارها تستقر بشكل او بآخر وتصبح واقعالغويا، لا يستطيع التقعيد النحوي أو الصرفي له تبديلا بالاضافة الى هذه التحويلات التي تحدثها لغة الصحافة في اللغة العربية بعلاقة مع اللغات الغازية. هناك عنصر آخر تمتاز به لغة الإعلام ويتمثّل في انفتاح هذه اللغة وإقبالها الغريب على الحدث في سباق عنيف مع الزمن. لذلك نرى لغتنا الإعلامية العربية تستقي أدوات تعبيرها من اللهجة المنطوقة المتداولة خاصة اذا كان الموضوع مثلا اجتماعيا أو أخلاقيا أي يتعلق بالعلاقات المجتمعية بين الناس.

وكذلك هي (أي لغة الاعلام) تعود الى التعابير العربية القديمة في مجالات خاصة (التهاني، المعايدات، التآبين، الوعظ والارشاد.. الخ).

ان هذا الجمع بين مراجع وسجلات مختلفة هو الذي يشكل الميزة الخاصة للغة الصحافة التي نظرا لملاصقتها الانسان باستمرار تؤثر فيه لغويا ويتناقص البون بينها وبينه، عندما يمكن لها أن تسقيه ما تريد وتصنع منه الانسان الذي تشتهيه، لذلك فان لغة الاعلام لغة خطيرة نظرا لقربها من المتلقي وتوغلها فيه، فلها أن تحييه ولها أن تميته بالوسائل النافذة التي تمتلكها.

اللغة الادبية

اذا كانت لغة الاعلام تنتهي بانتهاء الخبر الذي تحمله فلا يبقى لها أثر جمالي في نفس القارىء أو السامع. فان لغة الأدب هي اللغة التي تستطيع أن تقاوم الزمن ولا تفنى بمجرد نفاد حمولتها.

ولا يعني هذا أنها صياغة خارج حيز الزمن فهي أيضا تتأثر بما تتأثر به لغة الاعلام من لهجات محلية ولغات غازية واستعمالات لغوية قديمة. ولكن شيئا آخر متميزا يجعلها تصمد، ويجعلها قادرة في كلّ وقت أن تحتفظ بشحنتها الجمالية الفاعلة في النفوس فعلها.

صحيح أن اللغة الادبية موضوع تحاول القبض عليه ولكن وفي نفس الوقت هي موضوع ذاتها. فهي بقدر ما ترصد الموضوع ترصد بنفس القدر نفسها في نرجسية هي سرّ بقائها واحتفاظها بروائها الدائم، فاذا الكلمة غير الكلمة المعهودة واذا السياق غير السياق المتداول... فهي سلسلة «انتصارات خائبة» و «عدولات» و «مفاجآت» ترتفع بالبلاغ العادي وتشحنه شحنا مغايرا لكلّ توقعاتنا... وهذا ما يحدث فينا الصدمة أو الرجّة الجمالية التي يبقى أثرها فينا طويلا.

فميزة الكتابة أو الصناعة الأدبية هي في تناول المألوف بطريقة غير مألوفة.... فاذا كانت لغة الإعلام تؤثر في المتلقي بحكم المعاشرة المتواصلة له، فان لغة الادب تؤثر بطريقة اللقاءات العنيفة والصدامية التي ترج المقبل عليها فتوصمه وتحطّ فيه فلا تبرحه.

لذلك فلغة الادب زيادة على وظيفتها الابلاغية والتعبيرية تمتاز على بقية اصناف اللغة بوظيفتها الانشائية الجمالية التي تضمن لها الدّوام.

لقد اهتمت البحوث الأسلوبية بالنظر في هذا السرّ الذي يجعل من بعض الكتابات الأدبية كتابات جميلة رغم تغيير مقاييس الجمال اللغوي قصد ابراز المؤثرات التي يستعملها أديب دون آخر... الا أنها لم تتوصل الى تقنين هذه المؤثرات.... اذ يمكن أن يكون التجديد في السياق مؤثرا جماليا ولكن ليس كلّ تجديد يؤثر، ويمكن أن تكون كيفية الصياغة مدهشة ولكن ليس كلّ صياغة تستحدث بقادرة على إشارة الدهشة، ويمكن أيضا أن تكون المفاجآت عنصرا هاما في إحداث الرجة، ولكن تبيّن أنه ليس كلّ ما يفاجىء يسرّ...

اذن أين يكمن السرّ؟ لقد حاول الكثير من الألسنيين الإجابة عن هذا السؤال ولكنهم لم يعرفوا على وجه التحديد ما هذا الذي يشع من خلال بعض الكتابات الادبية. الا أن «مارتيني» يعزو ذلك الى «الحافات» ويعرفها كالآتي: هي كلّ ما في استعمال كلمة ما، مما لا تشمله تجربة جميع مستعملي تلك الكلمة في تلك اللغة».

فموقف مارتيني كما نرى يعود الى الاستبطان ومعرفة ذات المبدع التي تتميز بتجربة غنية وعميقة، تجعل نصه يشع في نفس القارىء الذي يتحد معه في مستوى أدنى من التشارك في التجربة. اذ يمكن لنفس النص أن لا يجد صداه لدى قارىء آخر لا يتوفر له ذاك المستوى الادنى من التجربة نفسها.

وهكذا يبدو أنّ سرّ تأثير النص الأدبي يرجع الى عوامل كثيرة ومتشابكة منها التجربة الذاتية للمبدع ومنها معارفه وعلاقاته وطريقة تعامله مع اللغة.. كل هذه العناصر تجعل من الكتابة الادبية كتابة صامدة عبر الزمن وقدر الفناء.

تونس